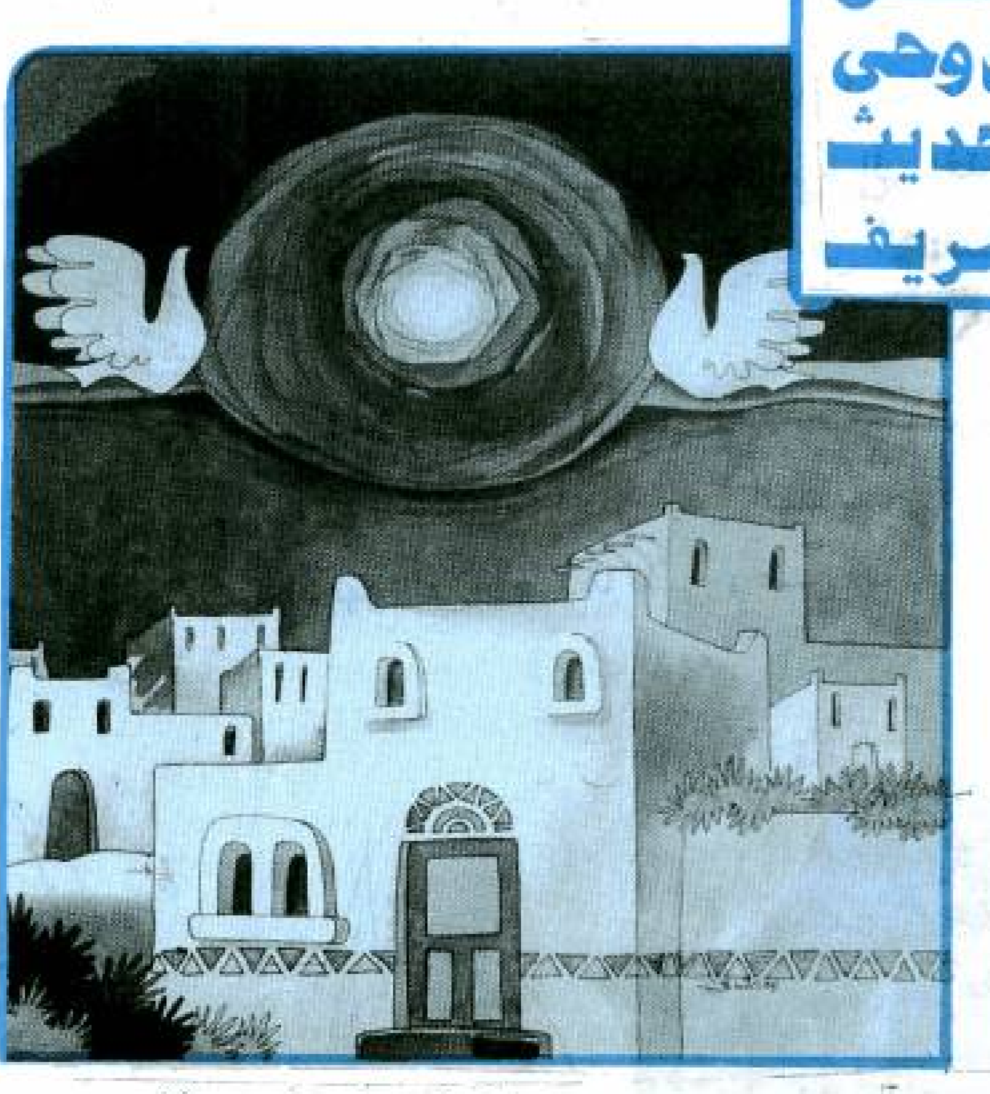
1

قصص من وحي الحديث الشريف



صدق التوبة

بقلم
عبد الحميد عبد المقصود

رسوم
عبد الشافي سيد

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

كَانَ مِنْ عَادَةِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، إِذَا هَمَّ بِالْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ فِي غَزْوَةٍ مِنَ الْغَزَوَاتِ ، أَنْ يَأْمُرَ أَصْحَابَهُ بِالتَّجَهُّزِ وَالاسْتِعْدَادِ لِلْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ فِي سَبِيلِ اللهِ ..

وَكَانَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، يُخْفِي عَنْ أَصْحَابِهِ الْجِهَةَ الَّتِي يَقْصِدُهَا فِي غَزْوِهِ ، حَتَّى لَا يَتَسَرَّبَ خَبَرُ الْغَزْوِ إِلَى أَعْدَائِهِ ، وَحَتَّى يَتَوَافَرَ لِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ عُنْصُرُ الْمُفَاجَأَةِ فِي الانْقِضَاضِ عَلَى عَدُوِّهِمْ ..

وَكَانَ الصَّحَابَةُ (رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ) ، يُطِيعُونَ الرَّسُولَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، حَتَّى إِذَا أَخَذَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ كُلَّ اسْتِعْدَادَاتِهِ تَحَرَّكَ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي يَقْصِدُهَا النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي غَزْوِهِ ..



وَكَانَ أَثْرِيَاءُ الصَّحَابَةِ أَمْثَالُ (عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ)، و (أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ) ـ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ ـ، يُشَارِكُونَ بِأَمْوَالِهِمْ فِى تَجْهِيزِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِمْدَادِهِ بِالسِّلَاحِ وَالطَّعَامِ .. وَقَدْ جَهَّزَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ (رَضِىَ اللهُ عَنْهُ) جَيْشَ (الْعُسْرَةِ) بِكَامِلِهِ ..

وَكَانَ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَأْذَنُ لِلْمَرْضَى وَالضُّعَفَاءِ وَكِبَارِ السِّنِّ، مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِ الْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَتَحَمَّلُونَ مَشَقَّةَ السَّفَرِ الطَّوِيلِ فِى حَرِّ الصَّحْرَاءِ، وَالْقُدْرَةَ عَلَى قِتَالِ الْأَعْدَاءِ ..



وَكَانَ يُوجَدُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فُقَرَاءُ يُحِبُّونَ الخُرُوجَ مَعَ الرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِلْغَزْوِ ، لَكِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ الأَسْلِحَةَ الَّتِي يُقَاتِلُونَ بِهَا ، وَلَا الدَّوَابَّ الَّتِي تَحْمِلُهُمْ إِلَى مَيْدَانِ الْغَزْوِ .. وَكَانُوا يُلِحُّونَ عَلَى الرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي الخُرُوجِ مَعَهُ لِلْغَزْوِ .. وَكَانَ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، يَبْذُلُ أَقْصَى جَهْدِهِ لِيُوَفِّرَ لَهُمُ الدَّوَابَّ الَّتِي تَحْمِلُهُمْ إِلَى مَيْدَانِ الْقِتَالِ ، فَإِذَا لَمْ تَتَوَفَّرْ هَذِهِ الدَّوَابُّ لِحَمْلِهِمْ ، كَانَ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُعْفِيهِمْ مِنَ الْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ ..

وَكَانَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ يُفَضِّلُونَ الْخُرُوجَ مَعَ الْجَيْشِ وَيَقْطَعُونَ الصَّحْرَاءَ فِي حَرِّ الصَّيْفِ ، أَوْ بَرْدِ الشِّتَاءِ ، مَاشِينَ عَلَى الْأَقْدَامِ حُبًّا فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَطَمَعًا فِي الْفَوْزِ بِالنَّصْرِ أَوِ الشَّهَادَةِ ..

* * *



وَحِينَمَا قَرَّرَ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الْخُرُوجَ فِي غَزْوَةِ (تَبُوكٍ) جَمَعَ أَصْحَابَهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي جَيْشٍ كَبِيرٍ لِغَزْوِ الرُّومِ الَّذِينَ احْتَشَدُوا فِي جَيْشٍ كَبِيرٍ عَلَى حُدُودِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ مُهَدِّدِينَ أَمْنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ هُنَاكَ، وَمُهَدِّدِينَ أَمْنَ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ النَّاشِئَةِ .. أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ حَتَّى يَأْخُذُوا عُدَّتَهُمْ لِلسَّفَرِ الطَّوِيلِ وَقِتَالِ الرُّومِ . وَأَمَرَ الرَّسُولُ أَصْحَابَهُ أَنْ يَتَجَهَّزُوا لِلْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَفِي سَبِيلِ رَفْعِ رَايَةِ الإِسْلَامِ عَالِيَةً خَفَّاقَةً ..

وانْصَرَفَ جَمِيعُ الصَّحَابَةِ الْقَادِرِينَ عَلَى الْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ، لِتَجْهِيزِ أَسْلِحَتِهِمْ مِنَ السُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ وَالأَقْوَاسِ وَالسِّهَامِ، اسْتِعْدَادًا لِتَلَقِّي أَمْرِ الرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِالتَّحَرُّكِ لِغَزْوِ الرُّومِ .



وَكَانَ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَلَقَّوا أَمْرَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِالتَّجَهُّزِ لِلْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ ، ثَلَاثَةٌ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ السَّابِقِينَ إِلَى الإِسْلَامِ وَهُمْ :

الصَّحَابِىُّ الجَلِيلُ (كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِىُّ) ..

وَالصَّحَابِىُّ الجَلِيلُ (مَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعُمَرِىُّ) ..

وَالصَّحَابِىُّ الْجَلِيلُ (هِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِىُّ) ..

ـــ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا ..

اسْتَعَدَّ جَمِيعُ الصَّحَابَةِ لِلْخُرُوجِ إِلَى (تَبُوك) مَعَ الرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، بَيْنَمَا بَقِىَ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةُ الثَّلَاثَةُ دُونَ أَنْ يَتَجَهَّزُوا لِلْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ ..

كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَمْلِكُ سِلَاحَهُ الَّذِى سَيُحَارِبُ بِهِ ، وَكَانَ يَمْلِكُ الدَّابَّةَ الَّتِى سَتَحْمِلُهُ إِلَى (تَبُوك) .. وَكَانَ يَمْلِكُ الْمَالَ الَّذِى سَيَشْتَرِى بِهِ طَعَامَهُ ، الَّذِى يَكْفِيهِ طُوَالَ فَتْرَةِ الْغَزْوِ ..

كان (كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ) يَخْرُجُ لِيُجَهِّزَ نَفْسَهُ لِلْغَزْوِ ، وَفِى كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ يَرْجِعُ دُونَ أَنْ يُعِدَّ جِهَازَهُ .. وَفِى كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ (كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ) يَقُولُ لِنَفْسِهِ :

أَنَا قَادِرٌ عَلَى تَجْهِيزِ نَفْسِى ، إِذَا أَرَدْتُ ذَلِكَ ..

وَهَكَذَا مَضَى الْوَقْتُ ..

مَرَّ يَوْمٌ وَرَاءَ يَوْمٍ ، وَلَمْ يَنْتَهِ مِنْ إِعْدَادِ نَفْسِهِ لِلْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ ..

وَذَاتَ صَبَاحٍ أَكْمَلَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعَ اسْتِعْدَادَاتِهِ ، وَأَصْبَحَ جَاهِزًا لِلتَّحَرُّكِ إِلَى (تَبُوك) ..



اسْتَعْرَضَ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الْجَيْشَ، واطْمَأَنَّ عَلَى سِلَامَةِ جَمِيعِ أَفْرَادِهِ، واسْتِعْدَادِهِمْ لِلْغَزْوِ .. ثُمَّ أَوْصَاهُمْ أَلَّا يَقْتُلُوا النِّسَاءَ وَلَا الْأَطْفَالَ وَلَا كِبَارَ السِّنِّ، وَأَلَّا يَقْطَعُوا الزَّرْعَ أَوْ يَحْرِقُوهُ، وَأَنْ يَقْتَصِرُوا فِي قِتَالِهِمْ عَلَى جَيْشِ الْعَدُوِّ فَقَطْ ..

وَأَخِيرًا أَصْدَرَ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَوَامِرَهُ إِلَى الْجَيْشِ بِالتَّحَرُّكِ .. فَغَادَرَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى (تَبُوك) ..

كَانَ الطَّرِيقُ إِلَى (تَبُوك) شَاقًّا، حَيْثُ أَنَّ الْوَقْتَ صَيْفٌ، وَحَرَارَةُ الشَّمْسِ الْحَارِقَةُ تَلْفَحُ الْوُجُوهَ .. لَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا لِلْغَزْوِ مَعَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، تَحَمَّلُوا الْجُوعَ وَالْعَطَشَ وَمَشَقَّةَ الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ، لِأَنَّهُمْ يَطْمَعُونَ فِي الْفَوْزِ بِرِضْوَانِ اللهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الْجِهَادَ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ قَادِرٍ عَلَى الْقِتَالِ، وَأَنَّ عِقَابَ مَنْ يَتَخَلَّفُ عَنْ أَدَاءِ هَذَا الْفَرْضِ دُونَ عُذْرٍ قَاهِرٍ، أَنْ يَحْرِقَهُ اللهُ بِنَارِ جَهَنَّمَ، وَنَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا مِنْ حَرَارَةِ شَمْسِ الصَّحْرَاءِ الْمُحْرِقَةِ ..

وَعَلِمَ (كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ) بِتَحَرُّكِ الْجَيْشِ وَخُرُوجِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ فِي طَرِيقِهِ إِلَى (تَبُوك) فَحَزِنَ لِذَلِكَ حُزْنًا شَدِيدًا .. وَقَرَّرَ أَنْ يُسَارِعَ إِلَى اللَّحَاقِ بِالْجَيْشِ ، دُونَ أَنْ يَسْتَكْمِلَ اسْتِعْدَادَهُ لِلْحَرْبِ ، لَكِنَّهُ تَرَاجَعَ فِي آخِرِ لَحْظَةٍ ..

وَأَصْبَحَ كُلَّمَا غَادَرَ بَيْتَهُ وَسَارَ فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، لَا يَرَى إِلَّا ضُعَفَاءَ الْمُسْلِمِينَ ، أَوِ الْمَرْضَى ، أَوْ كِبَارَ السِّنِّ ، أَوْ الْفُقَرَاءَ الَّذِينَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى تَجْهِيزِ أَنْفُسِهِمْ لِلْقِتَالِ ، وَهُمُ الَّذِينَ أَذِنَ لَهُمُ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِالْبَقَاءِ ، وَعَدَمِ الْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ ..

وَأَصْبَحَ (كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ) كُلَّمَا تَذَكَّرَ قُعُودَهُ وَتَكَاسُلَهُ عَنِ الْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ دُونَ أَيِّ عُذْرٍ مِنَ الْأَعْذَارِ ، يَحْزَنُ حُزْنًا شَدِيدًا ، وَيُكَرِّرُ قَوْلَهُ : يَا لَيْتَنِي لَحِقْتُ بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ .. يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنِ الْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ ..

ثُمَّ يَتَسَاءَلُ فِي حَيْرَةٍ :

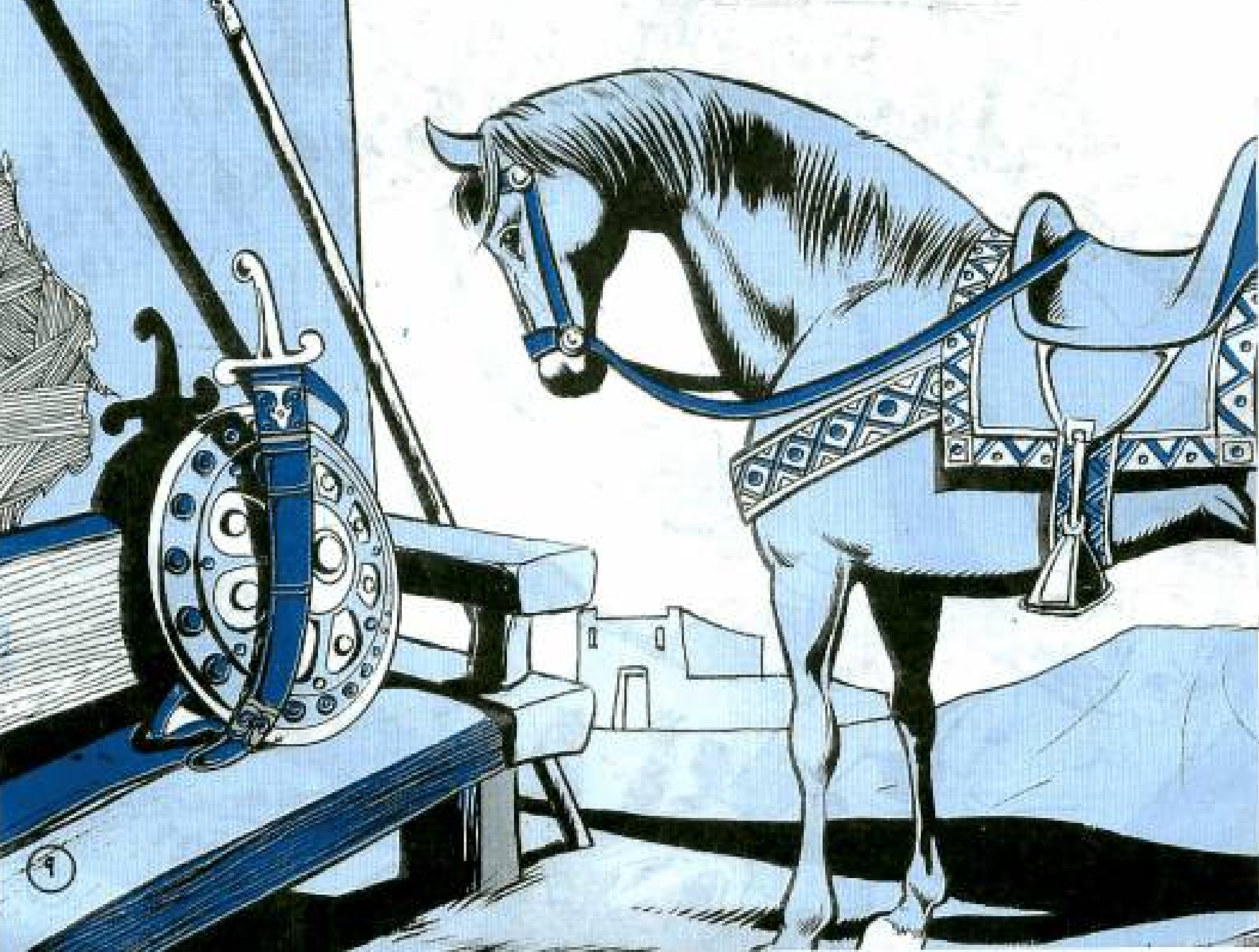


مَاذَا سَأَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ حِينَمَا يَعُودُ مِنَ الْغَزْوِ وَيَسْأَلُنِي عَنِ سَبَبِ تَخَلُّفِي ؟ وَأَيُّ عُذْرٍ سَوْفَ أَعْتَذِرُ بِهِ لِرَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ؟

وَكَانَ كُلٌّ مِنَ الصَّحَابِيَّيْنِ الْجَلِيلَيْنِ (مَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ) وَ (هِلَالُ ابْنُ أُمَيَّةَ) يُكَرِّرُ عَلَى نَفْسِهِ هَذِهِ الأَسْئِلَةَ ، فَقَدْ تَخَلَّفَا هُمَا أَيْضًا عَنِ الْغَزْوِ دُونَ أَيِّ عُذْرٍ مَقْبُولٍ ..

★★★

أَمَّا مَاكَانَ مِنْ أَمْرِ الرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَإِنَّهُ عِنْدَمَا وَصَلَ الْجَيْشُ إِلَى (تَبُوكَ) أَخَذَ يَسْتَعْرِضُهُ ، فَعَلِمَ بِغِيَابِ (كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ) وَرَفِيقَيْهِ ، فَسَأَلَ عَنْهُمْ .. وَأَخْبَرَهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا مَعَ الْجَيْشِ لِلْغَزْوِ ..



وَأَمَّا مَاكَانَ مِنْ أَمْرِ جَيْشِ الرُّومِ ، فَإِنَّهُمْ حِينَمَا عَلِمُوا مِنْ جَوَاسِيسِهِمْ بِخُرُوجِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ، يَقُودُهُ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِنَفْسِهِ لِغَزْوِهِمْ ، فَرُّوا عَائِدِينَ إِلَى دَاخِلِ بِلَادِهِمْ ، وَلَمْ يَشْتَبِكُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِتَالٍ ..



وَهَكَذَا كَفَى اللهُ الْمُسْلِمِينَ الْقِتَالَ ، وَحَقَّقَتِ الْغَزْوَةُ هَدَفَهَا فِي الْقَضَاءِ عَلَى تَهْدِيدَاتِ الرُّومِ لِلْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلِلدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ النَّاشِئَةِ .

وَهَكَذَا قَادَ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ عَائِدًا بِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

* * *

وَعَلِمَ (كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ) بِعَوْدَةِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَزْوَةِ (تَبُوك) وَعَلِمَ أَنَّ الرَّسُولَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، قَدْ سَأَلَ عَنْهُ فِي تَبُوك وَعَرَفَ بِقُعُودِهِ عَنِ الْخُرُوجِ لِلغَزْوِ ، فَحَزِنَ (كَعْبُ) حُزْنًا شَدِيدًا ، وَأَخَذَ يَسْتَعْرِضُ الأَعْذَارَ الكَاذِبَةَ الَّتِي سَيَتَعَلَّلُ بِهَا لِلرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، إِذَا سَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ تَخَلُّفِهِ ..

وَكَذَلِكَ فَعَلَ كُلٌّ مِنْ (مَرَارَةَ بْنِ الرَّبِيعِ) وَ (هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ) ..



لكِنْ كُلٌّ مِنهُمْ كَانَ فِي دَاخِلِهِ يَشْعُرُ بِالذَّنْبِ وَالخَجَلِ ، لِأَنَّهُ سَيَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ..

وَأَخِيرًا هَدَى اللهُ الصَّحَابَةَ الثَّلَاثَةَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا الْحَقِيقَةَ لِرَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وَلْيَنْتَظِرْ كُلٌّ مِنهُمُ الْحُكْمَ الَّذِى سَيَحْكُمُ بِهِ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَيْهِ ..

* * *

وَصَلَ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى رَأْسِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ..

وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ أَنْ يَبْدَأَ بِدُخُولِ الْمَسْجِدِ ، فَيُصَلِّى رَكْعَتَيْنِ لِلهِ تَعَالَى ، ثُمَّ يَجْلِسُ لِيَتَفَقَّدَ أَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ ..

فَلَمَّا أَتَمَّ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَدَاءَ صَلَاتِهِ ، جَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ ، وَبَدَأَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ لَمْ يَخْرُجُوا مَعَهُ لِلْغَزْوِ يَتَوَافَدُونَ إِلَى الْمَسْجِدِ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ ..

وَكَانَ مِنْ بَيْنِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى الْمَسْجِدِ أَكْثَرُ مِنْ ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْخُرُوجِ لِغَزْوَةِ تَبُوكَ .. أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ يُبْدِى أَعْذَارَهُ ، وَيَحْلِفُ لِلرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أَنَّهُ مَا تَخَلَّفَ عَنِ الْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ إِلَّا لِعُذْرٍ قَاهِرٍ ..

وَبِرَغْمِ أَنَّ الرَّسُولَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كَانَ يَعْلَمُ كَذِبَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ ، فَقَدْ قَبِلَ أَعْذَارَهُمْ ، واسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، وَوَكَلَ أَمْرَ كَذِبِهِمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى ..



وَحَضَرَ (كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ) فَسَلَّمَ عَلَى الرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَرَدَّ عَلَيْهِ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) السَّلَامَ بِابْتِسَامَةٍ غَاضِبَةٍ .. ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ ، فَجَلَسَ (كَعْبُ) أَمَامَهُ .. وَسَأَلَهُ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَنْ سَبَبِ تَخَلُّفِهِ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَهُ لِلْغَزْوِ .. فَأَجَابَ (كَعْبُ) فِي صِدْقٍ :

وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ ، لَنْ أَكْذِبَ عَلَيْكَ ، حَتَّى تَرْضَى عَنِّي ، وَتَغْفِرَ لِي تَخَلُّفِي عَنِ الْخُرُوجِ لِلْجِهَادِ ، فَيَفْضَحَ اللهُ كَذِبِي عِنْدَكَ .. وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ يَمْنَعُنِي عَنِ الْخُرُوجِ لِلْجِهَادِ .. فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِقَوْلِهِ :

« أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ .. فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ » أَيْ أَنَّ الرَّسُولَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لَمْ يَقْضِ فِيهِ بِحُكْمٍ ، بَلْ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَلْزَمَ دَارَهُ ، وَيَنْتَظِرَ حُكْمَ اللهِ تَعَالَى فِيهِ ..

خَرَجَ (كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ) مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ حَزِينًا ، لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ



(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لَمْ يَقْبَلْ عُذْرَهُ ، وَلَمْ يَسْتَغْفِرْ لَهُ ، كَمَا فَعَلَ مَعَ الْمُخَلَّفِينَ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَيْهِ ..

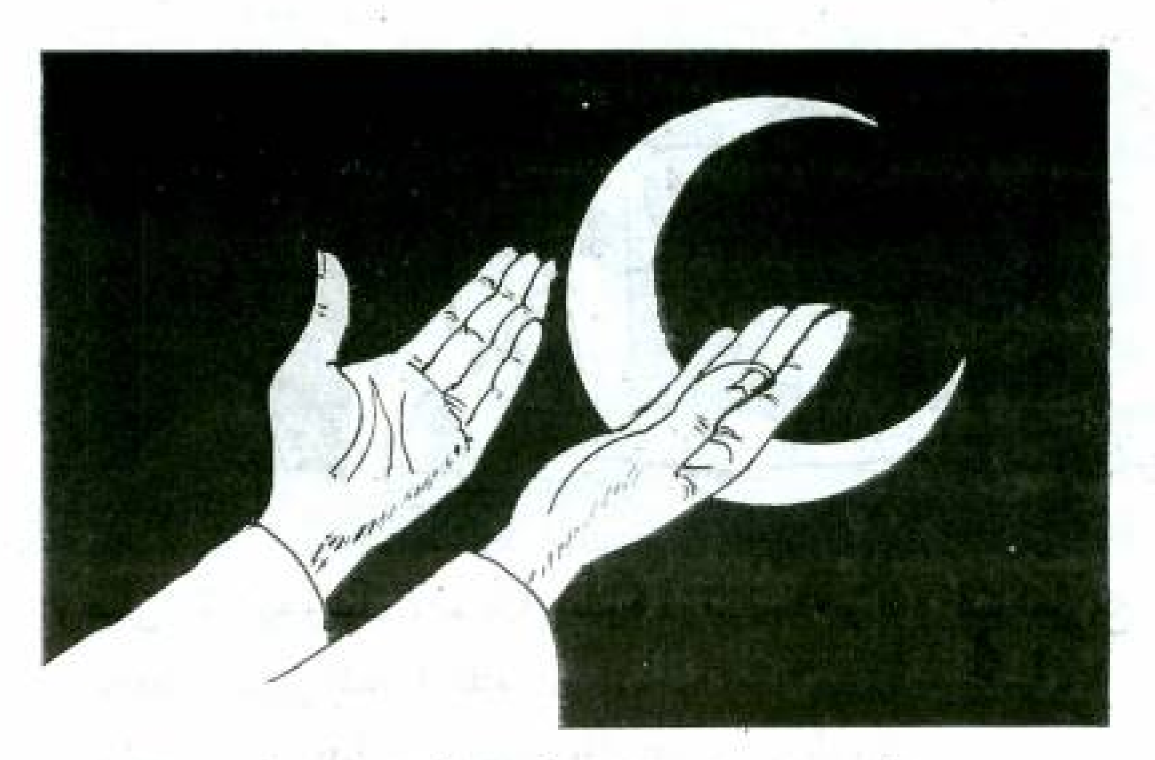
وَلَحِقَ بِهِ فِي الطَّرِيقِ ، بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالُوا لَهُ :

لِمَاذَا لَمْ تَعْتَذِرْ لِرَسُولِ اللهِ بِأَيِّ عُذْرٍ ، حَتَّى يَرْضَى عَنْكَ ، كَمَا اعْتَذَرَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ؟

وَمَازَالُوا يُؤَنِّبُونَهُ ، حَتَّى هَمَّ بِأَنْ يَرْجِعَ إِلَى الرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَيَعْتَذِرَ لَهُ بِأَيِّ عُذْرٍ يَقْبَلُهُ .. لَكِنَّهُ تَرَاجَعَ عَنْ ذَلِكَ فِي آخِرِ لَحْظَةٍ ..

وَعَلِمَ (كَعْب) مِنْهُمْ أَنَّ هُنَاكَ اثْنَيْنِ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ هُمَا (مَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ) وَ (هِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ) قَدْ تَخَلَّفَا مِثْلَهُ عَنِ الْخُرُوجِ ، وَلَمْ يَكْذِبَا مِثْلَهُ عَلَى الرَّسُولِ ، وَأَنَّ الرَّسُولَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، قَدْ أَمَرَهُمَا مِثْلَهُ بِالْتِزَامِ دَارَيْهِمَا .. كَمَا أَمَرَ الرَّسُولُ الْمُسْلِمِينَ بِاجْتِنَابِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ، وَعَدَمِ الْحَدِيثِ مَعَهُمْ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ فِي أَمْرِهِمْ ..

* * *



لَزِمَ (مَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ) وَ (هِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ) دَارَيْهِمَا واجْتَنَبَهُمَا النَّاسُ ، وَظَلَّا يَبْكِيَانِ حُزْنًا وَأَسَفًا ..

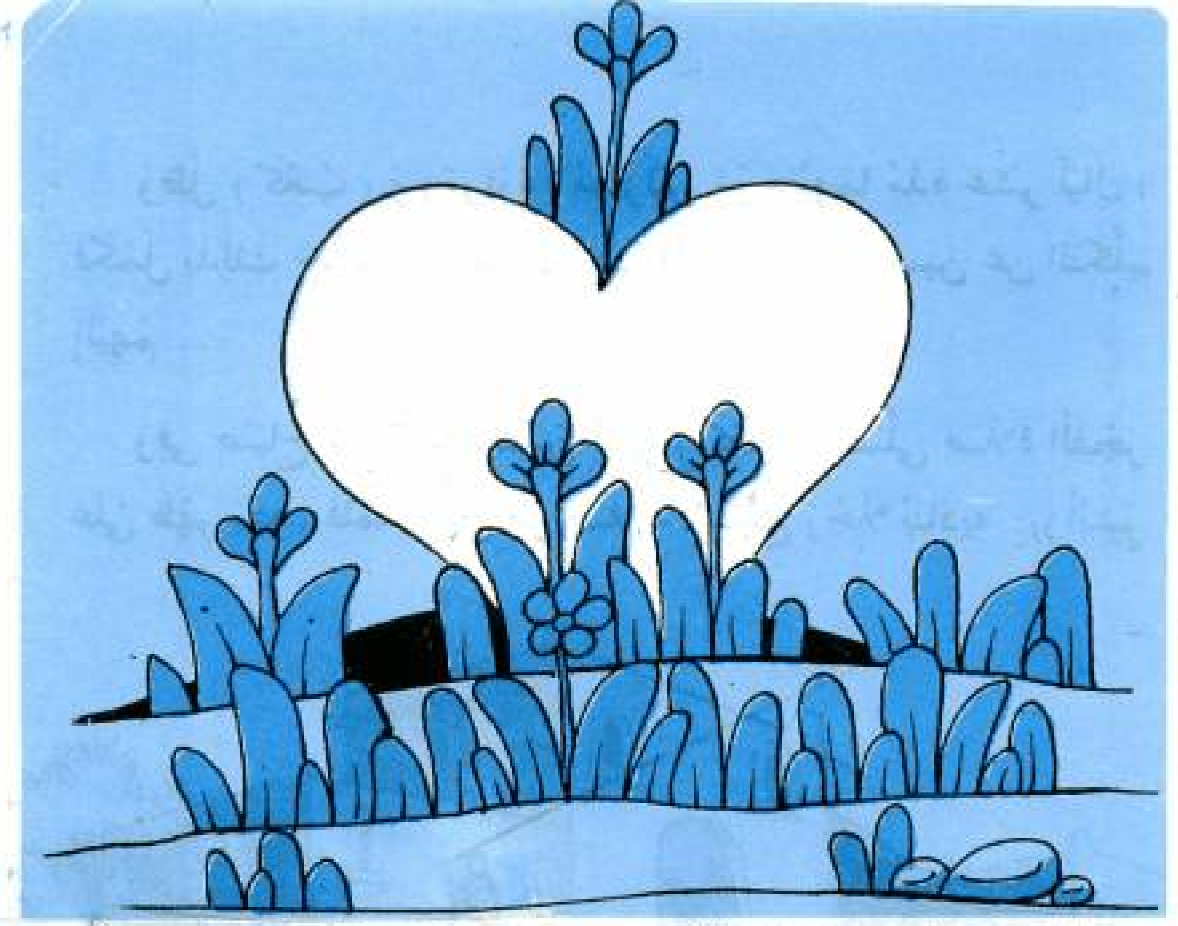
أَمَّا (كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ) فَكَانَ يَخْرُجُ لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ فِى جَمَاعَةٍ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِى الْمَسْجِدِ ، وَكَانَ يَطُوفُ فِى الأَسْوَاقِ ، فَلَا يُكَلِّمُهُ أَحَدٌ .. وَكَانَ يَأْتِى إِلَى رَسُولِ اللهِ ، فَيُلْقِى إِلَيْهِ بِالسَّلَامِ ، وَهُوَ لَا يَدْرِى هَلْ رَدَّ عَلَيْهِ الرَّسُولُ السَّلَامَ أَمْ لَا ..

وَهَكَذَا حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَظَنَّ أَلَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ..

وذاتَ يَوْمٍ كَانَ (كَعْبُ) يَسِيرُ فِى سُوقِ الْمَدِينَةِ ، فَسَمِعَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ جَاءُوا يَبِيعُونَ الطَّعَامَ بِالْمَدِينَةِ ، وَهُوَ يُنَادِيهِ :

يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ .. يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ ..

فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ كَعْبُ ، فَقَدَّمَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ خِطَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ ، فَفَتَحَ ابْنُ مَالِكٍ الْخِطَابَ وَقَرَأَ فِيهِ :



أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ يَقْصِدُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .. وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ .

أَيْ أَنَّ مَلِكَ غَسَّانَ قَدْ عَلِمَ بِاعْتِزَالِ المسْلِمِينَ لِـ (كَعْبٍ) فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَتْرُكَ دِينَ الإِسْلَامِ وَيَلْحَقَ بِهِ ، وَسَوْفَ يَجِدُ هُنَاكَ كُلَّ مَا يَسُرُّهُ .

مَزَّقَ (كَعْبٌ) الْخِطَابَ وَحَرَقَهُ ..

واسْتَمَرَّ الْحَالُ كَذَلِكَ ، حَتَّى مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً ، فَنَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى الرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَأَرْسَلَ إِلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا مَنْ يَأْمُرُهُمْ بِاعْتِزَالِ زَوْجَاتِهِمْ وَعَدَمِ الاقْتِرَابِ مِنْهُنَّ .. فَذَهَبَتْ زَوْجَةُ (هِلَالٍ) إِلَى الرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَقَالَتْ لَهُ بِأَنَّ زَوْجَهَا شَيْخٌ ضَائِعٌ ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ ، وَطَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهَا فِي الْبَقَاءِ بِجِوَارِ زَوْجِهَا لِتَخْدُمَهُ ، فَأَذِنَ لَهَا الرَّسُولُ بِذَلِكَ ..

وَظَلَّ (كَعْبُ) وَ (مَرارَةُ) مُعْتَزِلَيْنِ زَوْجَتَيْهِما مُدَّةَ عَشْرِ لَيالٍ ، فَكَمَلَ بِذَلِكَ خَمْسُونَ لَيْلَةً مُنْذُ نَهَى الرَّسُولُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ التَّكَلُّمِ إِلَيْهِمْ ..

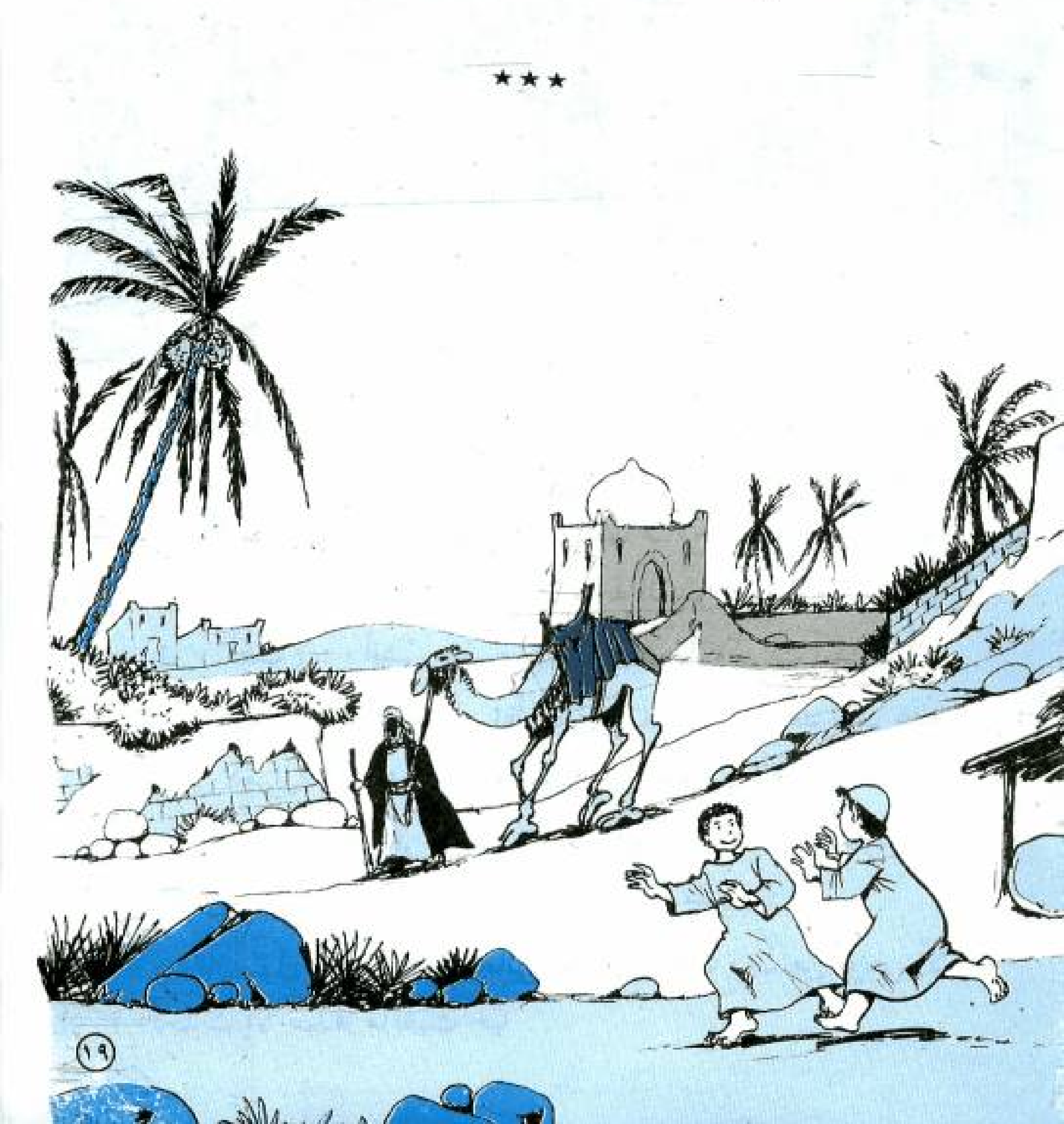
وَفِى صَباحِ اللَّيْلَةِ الْخَمْسِينَ كَانَ (كَعْبٌ) يُصَلِّى صَلاةَ الْفَجْرِ عَلَى ظَهْرِ بَيْتِهِ ، فَلَمَّا انْتَهَى مِنْ صَلاتِهِ ، سَمِعَ رَجُلًا يُنادِيهِ : (أَبْشِرْ



يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ) فَعَرَفَ (كَعْبٌ) أَنَّ الْفَرَجَ قَدْ جَاءَهُ ، وَخَرَّ لِلَّهِ سَاجِدًا .. ثُمَّ نَزَعَ ثَوْبَهُ وَقَدَّمَهُ هَدِيَّةً لِمَنْ بَشَّرَهُ ..

وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى كُلٍّ مِنْ (مَرَارَةَ بْنِ الرَّبِيعِ) وَ (هِلَالِ ابْنِ أُمَيَّةَ) يُبَشِّرُونَهُمَا ..

* * *



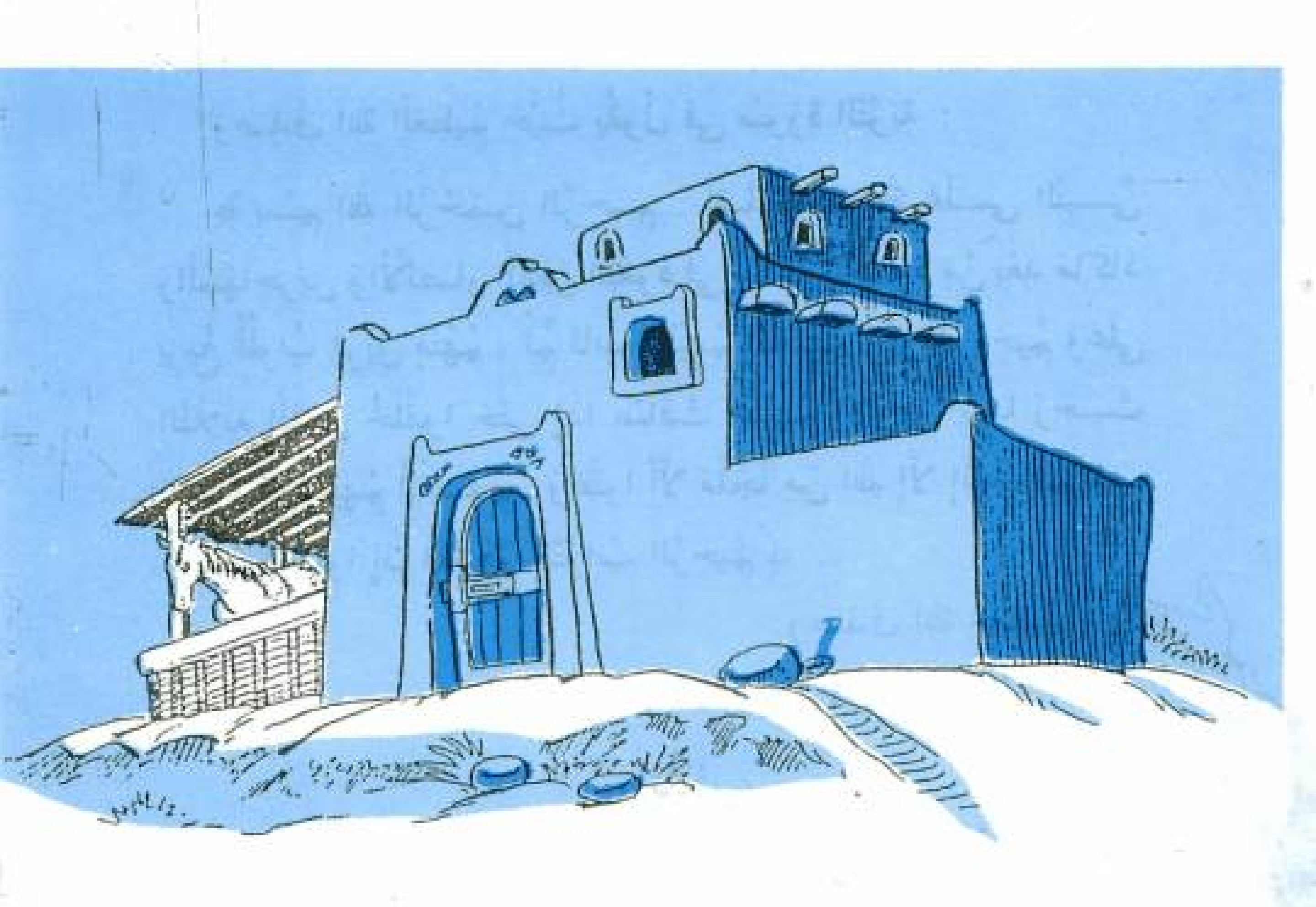


وَفِي الْحَالِ انْطَلَقَ (كَعْبٌ) إِلَى رَسُولِ اللهِ فِي الْمَسْجِدِ، وَانْطَلَقَ صَاحِبَاهُ (مَرَارَةُ) وَ (هِلَالٌ) إِلَى هُنَاكَ، فَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ يَسْتَقْبِلُونَهُمْ مُهَنِّئِينَ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ.. فَلَمَّا صَافَحَ (كَعْبٌ) رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، أَشْرَقَ وَجْهُ الرَّسُولِ بِالسُّرُورِ، وَقَالَ لِـ (كَعْبٍ): «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُذْ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ».

وَأَخْبَرَهُ الرَّسُولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنَّ اللهَ قَدْ تَابَ عَلَيْهِ وَعَلَى (مَرَارَةَ) وَ (هِلَالٍ) لِتَخَلُّفِهِمَا عَنِ الْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ..

فَرِحَ (كَعْبٌ) وَفَرِحَ (مَرَارَةُ) وَ (هِلَالٌ) بِهَذِهِ التَّوْبَةِ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ.. وَقَالَ لِلرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ):

يَا رَسُولَ اللهِ.. لَقَدْ أَنْجَانِي اللهُ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَلَّا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ حَيًّا.



وَفِعْلًا كَانَتْ تَوْبَةُ مَالِكٍ تَوْبَةً صادِقَةً ، فَلَمْ يَتَعَمَّدْ أَنْ يَكْذِبَ فِي حَيَاتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ..

وَكَمَا نَزَلَ الْوَحْيُ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ الَّتِي تُبَشِّرُ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ، كَذَلِكَ نَزَلَتْ آيَاتُ الْقُرْآنِ تَفْضَحُ كَذِبَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ ، وَتَفْضَحُ حَلِفَهُمْ بِاللهِ كَذِبًا والْتِمَاسَهُمْ الْأَعْذَارَ الْوَاهِيَةَ ، لِيَرْضَى عَنْهُمُ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ .

* * *

وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ حَيْثُ يَقُولُ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَلَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ..

(صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ)

[الآيتان ١١٧ و ١١٨]

(تَمَّتْ)



